

معركة القنفذة البحرية 1912: نهاية الأسطول العثماني في البحر الأحمر

نقلًا عن مجلة 'Rivista Nautica' (إيطاليا الملاحية)، المجلد 21 الصادر في روما عام 1912م؛ وهي دورية نصف شهرية متخصصة في الشؤون البحرية والعسكرية، كانت تصدر تحت إدارة عضو البرلمان الإيطالي فيديريكو دي بالما، وتعد من المراجع الموثقة التي رصدت العمليات البحرية في تلك الحقبة.



مقدمة المترجم

تعد "معركة القنفذة البحرية" (يناير 1912م) أحد أبرز فصول الصراع البحري في البحر الأحمر إبان الحرب الإيطالية التركية، والتي أدت إلى شلل تام للقوة البحرية العثمانية في المنطقة.

ويأتي هذا النص المترجم عن مجلة '*Rivista Nautica*' (إيطاليا الملاحية)، الصادرة في روما عام 1912م، ليقدم سرداً تاريخياً معاصراً للحدث من وجهة نظر إيطالية صرفة. لذا، يلحظ القارئ في طيات النص لغةً تمجيدية للانتصارات العسكرية الإيطالية، واستخداماً لمصطلحات تعكس الرؤية السياسية والعسكرية لروما في تلك الفترة، وهو ما يستدعي قراءته في سياقه التاريخي كوثيقة تعبر عن "رواية الطرف المنتصر" وكجزء من التغطية الصحفية الموجهة للداخل الإيطالي آنذاك.

إن القيمة المضافة لهذا النص لا تقتصر على سردية المواجهة، بل تكمن في كونه وثيقة أرشيفية نادرة تصف بدقة الملاحية في "بنك فارسان" ومراسي ساحل تهامة والحجاز، وتوثق التفاصيل الفنية للسفن المنخرطة في الصراع. نضع هذه الترجمة بين يدي الباحث لتقديم مادة تاريخية خام تعين على فهم أبعاد التنافس الدولي على السواحل العربية في مطلع القرن العشرين.

ترجمة: الشريف عبدالعزيز بن عبدالله آل عجلان القاسمي
2026م

النص من مقال المجلة البحرية الايطالية صفحة 68

كيف جرت أحداث معركة القنفذة البحرية

العمل الرائع الذي قامت به السفينة "بيمونتي" (Piemonte)

لو قُدِّر للبحرية أن تُمنح الفرصة، لتمكنت من تطهير البحر من العدو، تماماً كما فعلت اليوم على ساحل سوريا، وكما فعلت بالأمس على سواحل شبه الجزيرة العربية، من خلال عملية بحث وقتال هي حتى الآن أفضل دليل على ما يمكن لبحريتنا القيام به.

ولهذا السبب، من الضروري التأكيد على ما تم إنجازه في البحر الأحمر، بناءً على التوجيهات المستتيرة للقائد "تشيرينا" (Cerrina)؛ وعلى الكيفية التي تمت بها مطاردة العدو أولاً ثم كشفه، وأخيراً سحقه في عملية تكتيكية رائعة قامت بها السفينة "بيمونتي"، تحت قيادة قبطان الفرقاطة الباسل "أو. بالاديني" (O. Paladini).

إنه لمن دواعي السرور البالغ أن نرى اسم "القنفذة" مكتوباً على مؤخرة السفينة "فوفيت" (Fauvette)، التي استُولي عليها في تلك المعركة؛ ونحن واثقون من أنه في وقت لاحق، سيتم الحفاظ على تلك الذكرى دائماً على مؤخرة سفينة حربية مهمة.

كانت السفينة الملكية "بيمونتي" -كما هو معروف- قد نجحت في شهر يناير الماضي في القيام بعملية بحرية ملحوظة، حيث تمكنت من تدمير الزوارق المدفعية التركية التي كانت لا تزال متبقية في البحر الأحمر تماماً.

لم يكن تنفيذ هذه المهمة بالأمر السهل في ذلك الجزء من العالم. كان من الضروري أولاً العثور على العدو؛ وكان هذا البحث بالتحديد أحد أصعب الجوانب في الهدف الذي كان يراد تحقيقه.

كانت المهمة في الواقع تنطوي على صعوبات ملاحية حقيقية. عُلِمَ أن الزوارق المدفعية كانت تحتمي داخل "بنك فرسان" (Banco delle Farisan)؛ وكان من الضروري، للبحث عنها، التوغل في بحر غادر للغاية، مليء بالمخاطر الناجمة عن المياه الضحلة التي لا توفر خرائط الملاحة عنها سوى ضمانات متواضعة، كونها خرائط قديمة وبعضها غير دقيق، فضلاً عن نقص عام في بيانات سبر الأعماق. وتحذر الخرائط وكتب الإرشاد البحري لتلك المنطقة الملاحين من مخاطر الإبحار في تلك الأنحاء، حيث -باستثناء المسارات القليلة التي تم سبرها- لا توجد سوى السناييك (القوارب الصغيرة) والسفن الصغيرة.

بمجرد وصول السفينة الملكية "بيمونتني" إلى "مصوع"، تلقت الأمر بالبحث عن السفن المعادية في موانئ ومراسي "جزر فرسان". لقد تم اختبار الصعوبات الهيدروغرافية للملاحة على نطاق واسع خلال تلك الرحلة البحرية، ولكن لم تكن أي من هذه الصعوبات عائقاً أمام التنفيذ الكامل للبرنامج المقرر. وهكذا جرى تفتيش "فرسان" بدقة متناهية، ولكن للأسف دون أي نتيجة عسكرية، حيث لم يُلحظ أي أثر للعدو.

ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى أرسلت "بيمونتني" مرة أخرى للبحث في منطقة أخرى من البحر يجب استكشافها، وهي لا تقل خطورة عن سابقتها. كانت المهمة الجديدة تتمثل في استطلاع مسافة طويلة من الساحل العربي من "جدة" إلى "القنفذة"، وهو ما يعني التوغل مرة أخرى في "بنك فرسان".

سيكون من الطويل وصف الزيارات الدقيقة للمراسي والمراقبة اليقظة بين القنوات المتشابكة في ذلك البحر الغادر، حيث من الضروري حقاً استخدام كل موارد الخبرة البحرية إذا أراد المرء تجنب المفاجآت والحوادث غير السارة.

لقد تمكنت "بيمونتي" من التوغل في ممرات مائية معينة لم يسبق لسفن من حمولتها أن شوهدت فيها، وذلك بفضل الإصرار الجريء الذي بُذل للتغلب على الصعوبات المتنوعة التي اعترضت طريقها. وقد تمكنت أخيراً من العثور على العدو، الذي لم يكن يتوقع أبداً مثل هذه الملاحقة، معتقداً أنه في أمان خلف "بنك فرسان"، الذي بدا له كأنه حصن لا يُقهر.

في هذه المهمة الثانية، انضمت إلى "بيمونتي" المدمرتان "غاريبالدينو" (Garibaldino) و"أرتيلييري" (Artigliere). وبالفعل تم مسح مسافة كبيرة من الساحل دون العثور على أي أثر للعدو. ولم يتبق سوى زيارة "القنفذة".

في يوم 7 يناير، كانت المدمرتان تتقدمان السفينة "بيمونتي" بنحو ثلاثين ميلاً. وفي حوالي الساعة 13:30، تلقت السفينة من "غاريبالدينو" البرقية التالية:

"نحن في مرمى القنفذة. نرى في المرسى سفناً مشبوهة. بعد ذلك بوقت قصير، وردت برقيات أخرى: لقد تعرضنا لهجوم من السفن التركية. نحن نرد دون فقدان الاتصال بالعدو. هناك أيضاً بطارية أرضية تطلق النار ضدنا". كانت المدمرتان قد تلقتا أوامر بعدم الاشتباك حتى وصول "بيمونتي"، حيث بقيتا خارج مدى نيران العدو، الذي -بسبب تفوقه العددي- اتخذ موقفاً هجومياً عنيفاً وبقصف مستمر، حيث تشجع ضد السفينتين الإيطاليتين، ولكن دون أن يتمكن من إلحاق أي ضرر بهما. ومن جانبهما، كانت المدمرتان تردان وتراقبان بانتباه تحركات السفن المعادية لمنع أي منها من الهروب إلى عرض البحر.

في هذه الأثناء، كانت "بيمونتي" تبحر بسرعة. ولحسن الحظ، كانت حالة البحر في ذلك الممر أفضل من المعتاد؛ كما أن الخرائط وفرت ضمانات أمنية أكبر، مما يشير إلى وجود ممر أكثر حرية وسير للأعماق أكثر دقة. كان من الضروري الوصول قبل غروب الشمس لشن عملية فعالة. فالظلام كان سيسهل هروب الزوارق المدفعية المعادية في تلك المساحة المائية في "القنفذة"، التي لا تفتقر إلى المياه الضحلة، والتي كان بإمكان العدو استغلالها بفضل معرفتهم

العملية بتلك الأماكن و غاطس سفنهم الصغير لمحاولة الهروب الليلي. كان الوصول قبل غياب الشمس أمراً بالغ الأهمية لإخراجهم من القتال.

لم يضيع القائد "بالاديني" وقتاً وزاد السرعة قدر الإمكان. ومع ذلك، تم اتخاذ كل الاحتياطات لضمان سلامة الملاحة. كانت الرقابة اليقظة على الشاطئ تراقب سطح الماء في الأمام للإبلاغ فوراً عن أي تغيرات محتملة في لون البحر -وهو مؤشر على المياه الضحلة- وكان ضابط الملاحة، من خلال قياسات متكررة، يحدد بدقة موقع السفينة، التي كانت تندفع بخفة وثبات نحو مصيرها القتالي. وعندما كانت "بيمونتي" على مرأى من مرسى "القنفذة"، أمكن التأكد من وجود السفن المعادية. كانت ثماني سفن، وليست سفناً صغيرة: سبعة زوارق مدفعية ويخت تابع للحكومة. بدت جميعها راسية، ولكن مع تشغيل المحركات.

استمر القصف العنيف من السفن المعادية في هذه الأثناء دون انقطاع. وعلى متن "بيمونتي"، رُفعت راية القتال، فكانت لحظة مفعمة بالمشاعر العظيمة. ساد حماس كبير على المتن. روح مقدسة، رغبة في القتال -القتال أخيراً!- هزت صدور بحارتنا الشباب الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ساعة الاختبار، كل في موقعه.

اقتربت "بيمونتي"، ودخلت ميدان الرماية، وبدأت إطلاق قذائفها على مسافة تقارب 6000 متر. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة مساءً بقليل.

بدأت القذائف المعادية تصل إلى السفينة الإيطالية. كانت الطلقات تمر قريبة جداً منها، وتصيب الفوقية (المنشآت العلوية)، وجسر القيادة، والمؤخرة، وتسقط غير بعيد عن جانب السفينة.

ساد النظام التام على متن "بيمونتي". كان المصوبون ثابتين كأنهم مسمرون إلى مدافعهم، يتبعون بدقة تعليمات مدير الرماية. وكان القائد، بمعاونة ضابط الملاحة "باتاليا" (Battaglia)، يناور في ذلك البحر المليء بالمخاطر، رابطاً ببراعة العمل التكتيكي بالاحتياجات الهيدروغرافية للمكان.

أحد الزوارق المدفعية، وهو الأكثر بعداً، بدأ في التحرك متجهاً نحو الجنوب. وعلى الفور تم استهدافه، وبعد وقت قصير أصابته رشة قذائف مكونة من ست

طلقات من عيار 120 ملم، مما أدى إلى إصابته إصابة بالغة. ظل الزورق يترنح، مشلولاً تقريباً في مساره، بينما ألقى طاقمه -الذي أصيب بذعر شديد- بأنفسهم في البحر في اندفاع يائس، محاولين الوصول بجهد إلى الشاطئ القريب. رشة ثانية من القذائف، كانت أكثر دقة من سابقتها، أصابت السفينة المنكوبة في قلبها، موجهة لها ضربة القاضية. بدأت السفينة تميل ببطء على جانبها الأيسر، ثم استقرت على قاع البحر وظلت هناك بلا حراك.

بعد تصفية الزورق المدفعي الأول، انتقل الهجوم بالتتابع إلى الزوارق الأخرى. رشقات دقيقة وسريعة ومركزة كانت تصيب السفن المعادية التي كانت تفقد شجاعتها أكثر فأكثر تحت وابل الضربات. كان إطلاق النار من جانبنا فعالاً بشكل استثنائي، وبينما كانت آثاره المدمرة تظهر بوضوح، كانت نيران العدو تخبو، وبدأت تظهر عليها علامات الارتباك وعدم الدقة، ثم توقفت تماماً. كما توقفت البطارية الأرضية عن إطلاق النار.

على متن الزوارق المدفعية التركية، لم يعد الناس يفكرون إلا في إنقاذ حياتهم، فتركوا سفنهم التي سرعان ما أصبحت أهدافاً غير مؤذية لمدفعية السفينة الإيطالية. واستمرت "بيمونتي" -بمعاونة المدمرتين- في تدميرها مع الاقتراب أكثر فأكثر من الساحل. الزوارق المدفعية المسكينة، التي ثُقت تماماً بالقذائف، انتهت بها المطاف في حالة يرثى لها. أحدها، الذي اشتعلت فيه النيران بشكل كبير، كان يحترق مغلفاً بدخان كثيف ومهيّب. وحده اليخت ظل سليماً. كان القائد "بالاديني" -بنية الاستيلاء عليه في اليوم التالي- قد أعطى الأوامر بتوفيره وعدم قصفه.

توقف القصف العنيف عند غروب الشمس. لقد تحقق الهدف الآن تماماً. ففي أقل من ساعة، تم شل حركة الزوارق المدفعية وإخراجها من القتال. كان إطلاق النار من "بيمونتي" تحت إشراف ضابط المدفعية -الملازم أول "فولبي" (Volpe)- مثالياً، رائعاً، وفعالاً للغاية؛ الزوارق، الطاقم، الجميع حافظوا على سلوك مثير للإعجاب؛ كما ساهمت المدمرتان بمدافعهما من عيار 76 ملم مساهمة رائعة في نجاح العملية.

ومع حلول المساء، رست السفينة "بيمونتي" على بُعد 7000 متر من الساحل. ونُظمت خدمة مراقبة خارجية نشطة على متنها، بينما رست المدمرتان في مواقع مناسبة، تقومان بالحراسة كأنهما وحدات استطلاع مرنة في حالة تأهب.

اليخت فوفيت، الذي استولي عليه
الإيطاليين في القنفذة، يدخل
مصوع برفقة بيمونتي



Il yacht Fauvette, catturato a Confida, entra a Massaua insieme al Piemonte.

كانت الليلة رائعة. وظلت الزورق المدفعي المحترق يشتعل وبدأ كأنه مغمور في نار حية واسعة النطاق. كانت ألسنة اللهب والكتل المتوهجة تُقذف إلى الأعلى مثل الصواريخ، وتظهر بين الحين والآخر متبوعة بانفجارات كئيبة؛ لقد كانت ذخائر السفينة هي التي تنفجر. لم تكن هناك أي علامة أخرى على الحياة في تلك المنطقة الموحشة، حيث كانت ترقد هياكل سفن الأعداء البائسة مصطفة وبلا حراك.

لكن المراقبة من جانبنا ظلت مكثفة.

لم يكن أحد قد لاحظ عن قرب بعد الأضرار الجسيمة التي لحقت بالأعداء. فمن بين كل تلك الزوارق المدفعية المشلولة وشبه المدمرة، كان من المحتمل أن يكون أحدها قد تعرض لأضرار طفيفة نسبياً، بما يكفي للسماح له بالتحرك والهروب في الليل. فضلاً عن أن اليخت قد تُرك في حالة جيدة وكان بإمكانه الإقلاع.

من ناحية أخرى، هل كان لعدو محبط كهذا أن يجرو على محاولة الهروب ببعض ما تبقى لديه، بينما كان متأكداً تقريباً من عدم قدرته على الإفلات من رقابتنا؟

بدا الأمر مستحيلاً؛ ومع ذلك، ظل الشك يلوح في الأفق بشكل ملحّ ومزعج.

طرح القائد بالاديني فكرة القيام بعملية استطلاع. وتطوع عدد من الضباط تلقائياً. فنُظمت على الفور حملة استكشافية بزورقين بخاريين مسلحين للحرب. أرسل القائد الملازمين "فاندوني" و"سبورتييلو" وضابطي الصف "سوردينا" و"بوناكورسي" مع بعض البحارة الشجعان.

كان عليهم الاقتراب بحذر من المرسى حيث توجد السفن المعادية (على بُعد حوالي 6300 متر) للتأكد من وجودها جميعاً.

انطلقت الحملة حوالي الساعة 24:00 (منتصف الليل). كانت المهمة جريئة، بل متهورة. فرغم الحالة الكارثية لتلك الهياكل، كان من المتوقع أن تعود الأطقم التركية إلى متنها تحت جناح الليل لأخذ ما أمكنهم من أسلحة وذخائر وممتلكات شخصية.

لذا، كان من الممكن لزوارقنا -إذا اكتُشفت- أن تجد نفسها في وضع غير متكافئ أمام وابل كثيف من نيران البنادق المعادية.



زورق تركي مدمر في القنفذة

Interno di una cannoniera turca.

كانت نتيجة المهمة أكثر من ناجحة. فبالرغم من المخاطر المحتملة، لم يصل رجالنا إلى الهدف المحدد فحسب، بل تجاوزوه؛ إذ اقتربوا من أحد الزوارق المدفعية (الذي وجدوه مهجوراً)، وصعدوا إلى متنه، واستولوا على أسلاب حربية أخرى، ثم عادوا إلى "بيمونتي" حوالي الساعة 2 صباحاً. وقدموا للقائد،

الذي كان ينتظرهم بقلق، التأكيد على أن أياً من السفن المعادية لم تبهر. كان الجميع في مواقعهم باستثناء اليخت.

في صباح اليوم التالي، في تمام الساعة 7، تم اتخاذ وضع القتال لقصف المعسكر والمباني التي ترفع العلم التركي. كان يُعتقد أن البطارية الأرضية ستعاود الهجوم على "بيمونتي"، لكن لم يرد أحد على نيران السفينة الإيطالية. حتى المدينة بدت مهجورة؛ كان يسود البر والبحر سكون وحشة ودمار كامل.

بعد القصف، اقتربت "بيمونتي" من الزوارق المدفعية لاستكمال عملية التدمير. فبواسطة نيران مركزة ودقيقة، تم تحطيم الهياكل العزلاء، وظهرت حالتها المزرية بوضوح تام. كانت السفن، التي مزقتها الضربات والمائلة بشدة، تلامس القاع بلا حراك. أما الزورق المدفعي الموجود في مياه أكثر عمقاً، فقد غرق تماماً ولم يبرز منه فوق الماء سوى المدخنة وصواري السفينة.

وبعد توقف إطلاق النار، جرى الانتقال للاستيلاء على اليخت. ونجحت هذه العملية أيضاً بشكل رائع. حيث أرسلت بعثة بقيادة ضباط إلى متنه، وأبحرت به تحت حماية المدمرة. ثم قامت المدمرة "غاريبالدينو" بقطر اليخت، وبالرغم من الصعوبات الجمة الناتجة عن المياه الضحلة في الموقع، تمكنت من إيصاله إلى عرض البحر بالقرب من "بيمونتي"، التي استقبلت السفينة الإيطالية الجديدة بطلقات تحية مدفعية وهتافات "أوررا" (urrah) حماسية!

بعد ذلك، نُظمت بعض البعثات خصيصاً وصعدت إلى متن الزوارق المدفعية، حيث جمعوا وحملوا معهم كغنائم حربية العديد من المدافع، والرشاشات، والقوارب، والأدوات الملاحية، والأعلام. وتم شحن كل هذه الأشياء على متن "بيمونتي" لنقلها إلى "مصوع".

وبينما كان يجري تفتيش الزوارق المدفعية المختلفة، كانت المدمرتان -عن طريق إطلاق النار من مسافة قريبة (بضع مئات من الأمتار)- تطلقان قذائف شديدة الانفجار بهدف إيصال السفن إلى حالة من الدمار الشامل. وهي الآن تترقد على طول شاطئ القنفذة في ظروف لا يمكن وصفها. محطة وبائسة على

جوانبها، وبعضها غارق على امتداد هيكله، ومثقبة بالقذائف، ومنشآت العلوية محطمة، والمياه تدخل من الطوابق أو تغلي في الغرف السفلية بين الآلات، والمستودعات، والمساكن؛ محطمة، وممزقة بالحرائق، تبدو وكأنها هياكل قديمة صدئة.

وجدير بالذكر أن تلك السفن مجتمعة، والتي تتراوح حمولتها بين 250 و500 طن، ومسلحة بمدافع من عيار أقصاه 76 ملم، كانت تمثل قوة لا يستهان بها على الإطلاق أمام السفن الإيطالية الثلاث التي قاتلتها. وهكذا تلاشت القوة البحرية العثمانية في البحر الأحمر

المحرر (Il cronista)

مارس من عام 1912

نهاية المقال